المحور الثاني: الاستعراب، المفهوم والخصوصيات

مقدمة:

يرتبط مصطلح الاستعراب بدراسة العالم العربي من قبل باحثين غير عرب، ويُشير إلى الجهود العلمية التي تُبذل لفهم الثقافة العربية في أبعادها المختلفة: اللغوية، والتاريخية، والدينية، والأدبية، والاجتماعية، وعلى الرغم من أن هذا المصطلح لا يحظى بالشيوع ذاته الذي ناله مصطلح الاستشراق، إلا أنه يتقاطع معه في بعض الجوانب، خاصة من حيث اهتمامه بـ"الآخر العربي"، ويتميّز عنه من حيث السياقات التي نشأ فيها، والأهداف التي سعى إليها، والمناهج التي اعتمدها.

فبينما ارتبط الاستشراق غالبًا بالمشروع الاستعماري الأوروبي، وبالدوافع الدينية والسياسية التي رافقته، تطوّر الاستعراب في بيئات أكاديمية أقل تورطًا في التاريخ الاستعماري، كما هو الحال في روسيا، إسبانيا، ودول أوروبا الشرقية، هذه السياقات المختلفة أثّرت في طبيعة النظرة إلى العالم العربي، وخلقت مقاربات معرفية تميّزت بدرجة من الحياد النسبي والانفتاح الثقافي، لا سيما في مجالات اللغة والأدب والتراث الفكري.

لقد منح هذا التمايز الاستعراب خصوصيات علمية وثقافية واضحة، جعلت منه ميدانًا معرفيًا يستحق الدراسة والتحليل، سواء من حيث تطوّره التاريخي، أو من حيث تأثيره في تشكيل صورة العرب والمسلمين في الذهن الغربي، أو من حيث مساهماته الأكاديمية في مد جسور الحوار الثقافي بين الشعوب.

وفي ضوء تزايد الاهتمام المعاصر بإعادة النظر في الحقول المعرفية الغربية المرتبطة بالشرق، تبرز الحاجة إلى تفكيك مفهوم الاستعراب، والتمييز بينه وبين الاستشراق، واستكشاف خصوصياته وأدواره، سواء في الماضي أو الحاضر.

أولًا: مفهوم الاستعراب

يشير مصطلح الاستعراب (بالإنجليزية Arabism أو Arab Studies) إلى حقل معرفي يهتم بدراسة العالم العربي من قِبل باحثين غير عرب، ويشمل هذا الحقل مجموعة واسعة من التخصصات التي تتناول مظاهر الحياة والثقافة العربية في أبعادها المختلفة، من بينها:

- اللغة العربية: نحوًا وصرفًا وبلاغة وتاريخًا.
- الأدب العربي: شعرًا ونثرًا، قديمًا وحديثًا.
- التاريخ العربي: منذ العصور الجاهلية وحتى الفترات الحديثة.

- الثقافة والحضارة العربية: بما فيها الفنون، العادات، النظم الاجتماعية.
- الفكر العربي الإسلامي: فلسفة، تصوف، علم الكلام، وفقه.
- الواقع الاجتماعي والسياسي للعالم العربي: تحليل الأنظمة، البنية القبلية، الحركات السياسية، التحولات المجتمعية.

ويختلف الاستعراب عن الاستشراق من حيث التركيز الجغرافي والموضوعاتي؛ فبينما يشمل الاستشراق دراسة "الشرق" عمومًا، بما فيه مناطق مثل الهند، الصين، اليابان، وبلاد فارس، يُركّز الاستعراب تحديدًا على العالم العربي بوصفه وحدة لغوية وثقافية وتاريخية مترابطة.

ويُنظر إلى الاستعراب على أنه فرع متخصص داخل دائرة أوسع من الدراسات الشرقية، لكنه اتخذ طابعًا مستقلًا في بعض التقاليد الأكاديمية، خاصة في روسيا وإسبانيا وأوروبا الشرقية، حيث تطوّر ليشكل مجالًا علميًا له خصوصيته ومنهجيته وأدواته التحليلية الخاصة.

ولا يقتصر الاستعراب على مجرد الترجمة أو النقل من العربية إلى لغات أخرى، بل يتضمّن أيضًا تحليلًا نقديًا وتفسيرًا ثقافيًا للظواهر العربية، ومحاولة لفهم البنية الداخلية للمجتمعات العربية من منطلق أكاديمي موضوعي، ولهذا، فإن الاستعراب يُعدّ أداة مهمة في بناء تصورات معرفية حول العرب، سواء من زاوية تاريخية أو أنثروبولوجية أو لسانية.

ومع تطور الفكر النقدي في العقود الأخيرة، بات من المهم التمييز بين الاستعراب بوصفه أداة للفهم، والاستشراق بوصفه أداة للهيمنة، مع الإدراك بأن الحدود بين الاثنين ليست دائمًا واضحة، وأن العلاقة بين المعرفة والقوة تبقى قائمة بشكل أو بآخر في كل أشكال دراسة "الآخر".

ثانيًا: النشأة والسياق التاريخي

نشأ الاستعراب وتطوّر ضمن سياقات ثقافية وتاريخية تختلف نسبيًا عن تلك التي ظهر فيها الاستشراق الغربي الكلاسيكي، والذي غالبًا ما ارتبط بالحركات التوسعية الاستعمارية لأوروبا الغربية، لا سيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أما الاستعراب، فقد وُلد في فضاءات أكاديمية وثقافية متعددة المشارب، كان لبعضها تاريخ تفاعل طويل مع الثقافة العربية، فيما تميز بعضها الآخر بقدر من الحياد النسبي تجاه العالم العربي، مما منح الاستعراب طابعًا خاصًا ومستقلًا عن المنظومة الاستشراقية السائدة.

1. في إسبانيا: استمرارية الاهتمام بالأندلس

تُعدّ إسبانيا واحدة من أبرز البيئات التي نشأ فيها الاستعراب ضمن سياق ثقافي–تاريخي فريد، يختلف عن السياق الذي أنتج الاستشراق الكلاسيكي في أوروبا الغربية، إذ تعود جذور الاستعراب الإسباني إلى الإرث العميق الذي خلفه الوجود العربي الإسلامي في الأندلس، والذي امتد لأكثر من ثمانية قرون، وترك أثرًا بالغًا في اللغة، والعمارة، والعلوم، والفكر، والمجتمع الإسباني.

فبعد سقوط غرناطة عام 1492، لم يختفِ التأثير العربي من الذاكرة الجماعية الإسبانية، بل استمر بطرق متعددة، منها ما كان قائمًا على الحنين أو الإعجاب بالحضارة الأندلسية، ومنها ما اتخذ طابعًا أكاديميًا، سعى إلى فهم واستكشاف التراث العربي الإسلامي الذي شكّل جزءًا لا يتجزأ من الهوية الثقافية لشبه الجزيرة الإيبيرية، وقد ساهمت هذه الخلفية التاريخية في تشكّل ما يمكن تسميته بـ"الاستعراب الإسباني"، الذي تميّز عن غيره من تيارات الاستعراب بتركيزه على:

- اللغة العربية الكلاسيكية كلغة علم وأدب في السياق الأندلسي.
- الآداب العربية الأندلسية، خصوصًا الشعر والنثر، بما فيها الموشحات والزجل.
- الفكر العربي الإسلامي في الأندلس، مثل مؤلفات ابن رشد، وابن حزم، وابن طفيل.
- الوثائق والمخطوطات العربية المكتوبة في إسبانيا أو عن إسبانيا.

وقد برز عدد من المستعربين الإسبان الذين أسهموا في تحقيق النصوص، وترجمتها، ودراستها من منطلق علمي، بعيدًا عن التوظيف الاستعماري المباشر، من أبرز هؤلاء:

- ميغيل أسين بلاثيوس(Miguel Asín Palacios) ، الذي بحث في العلاقة بين الفكر الصوفي الإسلامي والفكر المسيحي الغربي، وفتح آفاقًا مقارنة جديدة.
- إيميليو غارسيا غوميث(Emilio García Gómez) ، الذي اهتم بتحقيق وترجمة الشعر الأندلسي، وأسهم في إبراز جماليات الأدب العربي لدى القارئ الإسباني.

لقد ساعد هذا المسار في ترسيخ تقليد استعرابي خاص في إسبانيا، يتسم بنزعة أقرب إلى الاحترام والتثمين للحضارة العربية الإسلامية، بل يمكن القول إنه شكل أداة للمصالحة مع ماضٍ معقد، شهد في مراحله الأخيرة توترات دينية وثقافية عميقة، ومع ذلك، فإن هذا الاهتمام لم يكن معزولًا دائمًا عن الخطابات السياسية والهوياتية في إسبانيا الحديثة، خاصة في ظل التوترات القائمة حول الهوية القومية والدينية، وهو ما يدعو إلى قراءة الاستعراب الإسباني بوصفه مشروعًا علميًا وتاريخيًا متعدد الأبعاد.

2. في روسيا وأوروبا الشرقية: السياق غير الاستعماري

يتميّز الاستعراب في روسيا والدول السلافية الأخرى – مثل أوكرانيا، بولندا، والتشيك – بسياقٍ مختلف عن نظيره في أوروبا الغربية، حيث نشأ وتطوّر في إطارٍ أكاديمي وعلمي مستقل إلى حدٍّ كبير عن الأهداف الاستعمارية التي كانت تحرّك الاهتمام بالعالم العربي في دول مثل بريطانيا وفرنسا، فروسيا ومن بعدها الاتحاد السوفييتي، لم تكن من القوى الاستعمارية التقليدية في المنطقة العربية، وهو ما منح الاستعراب الروسي نوعًا من الحياد النسبي، لا سيما في مراحله التأسيسية، وأتاح له التركيز على الجوانب اللغوية والأدبية والدينية والثقافية بعيدًا عن التوظيف السياسي المباشر.

لقد تميّز المستعربون الروس بعمق اهتمامهم بـ اللغة العربية الكلاسيكية، حيث بذلوا جهودًا كبيرة في دراسة قواعدها ونحوها وصرفها، وأنتجوا معاجم وقواعد وكتب تعليمية تُظهر مستوى رفيعًا من الكفاءة اللغوية، كما قاموا بترجمة العديد من المؤلفات التراثية العربية إلى الروسية، سواء في الفلسفة أو الطب أو الفلك أو الأدب، مما ساهم في إثراء الثقافة الروسية بمضامين الحضارة العربية–الإسلامية.

ومن أبرز سمات هذا التيار أيضًا اهتمامه بـ الشعر العربي القديم، الذي دُرس من منطلق جمالي وفني، وليس فقط بوصفه مادة لغوية أو دينية، وقد وجد الباحثون السلافيون في هذا الشعر تعبيرًا رفيعًا عن الثقافة البدوية وعن الحساسية العربية تجاه الطبيعة والوجود والإنسان، مما دفعهم إلى مقارنته بالأدب السلافي والفولكلور المحلي.

برز في هذا السياق عدد من المستعربين الروس البارزين، مثل إغناطيوس كراتشكوفسكي، الذي يُعدّ أحد أعلام الاستعراب في القرن العشرين، والذي ترجم "القرآن الكريم" إلى اللغة الروسية، وكتب دراسات معمّقة عن الأدب العربي وتاريخه، وكان عمله يتميّز بالدقة والموضوعية، وساهم في بناء جسور ثقافية بين العالمين العربي والسلافي.

ورغم أن الاستعراب الروسي حافظ نسبيًا على طابعه الأكاديمي النزيه، إلا أن السياق السياسي لم يكن غائبًا تمامًا، خاصة في حقبة الحرب الباردة، حين بدأت تظهر توجهات أيديولوجية في بعض الأعمال، حيث سعى الاتحاد السوفييتي إلى توظيف المعرفة بالعالم العربي في إطار صراعه مع الغرب، ودعمه لحركات التحرر الوطني في الدول العربية، ومع ذلك، ظل الطابع العام لهذا الاستعراب أكثر توازنًا، وأقل اختزالًا من نظيره الغربي، خاصة في مقاربته للثقافة والدين والتاريخ العربي.

في أوروبا الشرقية، ورغم تنوّع التجارب والظروف السياسية، ظل الاستعراب نشاطًا علميًا مدفوعًا بالفضول المعرفي أكثر منه بالأهداف الإمبريالية، ففي بولندا والتشيك، على سبيل المثال، كان هناك اهتمام بالأدب العربي والتاريخ الإسلامي في سياق الدراسات الشرقية العامة، بعيدًا عن المشاريع السياسية المباشرة.

يمكن القول إن الاستعراب في روسيا وأوروبا الشرقية شكّل حالة متميّزة في تاريخ العلاقات الثقافية مع العالم العربي، حيث نشأ في مناخٍ مختلف عن الاستشراق الغربي الكلاسيكي، مما أتاح له قدرًا من الاستقلالية والعمق الأكاديمي، وقد ساعد هذا الاتجاه، رغم ما طرأ عليه من تحوّلات لاحقة، في تقديم صورة أكثر توازنًا عن الحضارة العربية الإسلامية، وأسهم في خلق فضاء حواري حقيقي بين الثقافتين.

3. في فرنسا وبريطانيا: استعراب في ظل الاستشراق

في الدول الغربية الكبرى مثل فرنسا وبريطانيا، نشأ الاستعراب في البداية كجزء من مشروع الاستشراق الشامل، الذي مثّل منظومة معرفية استهدفت دراسة المجتمعات الشرقية – وبالأخص الإسلامية والعربية – من زوايا متعددة: لغوية، دينية، تاريخية، وأنتروبولوجية. ولم يكن هذا الاهتمام الأكاديمي منفصلًا عن الامتدادات السياسية والاستعمارية التي مارستها هاتان القوتان الإمبراطورتان في العالم العربي، مما جعل الاستعراب يتلوّن – في كثير من الأحيان – بالمنظور الأيديولوجي الأوروبي الذي تعامل مع "الآخر" العربي بوصفه موضوعًا للفهم والسيطرة معًا.

وقد بدأ الاستعراب الغربي في القرن الثامن عشر وأخذ بالاتساع في القرن التاسع عشر، بالتوازي مع التوسع الاستعماري في شمال إفريقيا والشرق الأوسط، وخاصة بعد احتلال فرنسا للجزائر (1830)، وتوسع النفوذ البريطاني في مصر (منذ 1882)، وفي هذا السياق، اكتسبت اللغة العربية أهمية استراتيجية، ليس فقط كلغة ثقافة ودين، وإنما أيضًا كأداة لفهم المجتمعات المستعمَرة وإدارتها.

فقد نشأت مدارس ومؤسسات أكاديمية متخصصة، مثل مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس (INALCO)، ومدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية في لندن(SOAS) ، لتكوين مستعربين يجيدون العربية ويملكون أدوات تحليل المجتمعات العربية، مما جعل الاستعراب فرعًا وظيفيًا إلى حدٍّ بعيد، يخدم الأغراض السياسية والإدارية والثقافية للمشروع الاستعماري.

ورغم هذا التوظيف السياسي، لا يمكن إغفال الجهود العلمية التي بذلها عدد من المستعربين الغربيين الذين أنتجوا ترجمات دقيقة ونصوصًا بحثية ساعدت في نقل التراث العربي الإسلامي إلى أوروبا، إلا أن هذه الجهود ظلت، غالبًا، محكومة بإطار فكري ينطلق من رؤية استشراقية تقوم على فوقية حضارية ضمنية، وعلى تصور أن الشرق عاجز عن تمثيل نفسه ويحتاج إلى "من يشرحه" للغرب.

وقد نقد هذا التوجه عدد من المفكرين العرب، أبرزهم إدوارد سعيد في كتابه الشهير الاستشراق (1978)، حيث بيّن كيف أن المعرفة الاستشراقية – بما في ذلك الاستعراب – كانت متشابكة مع علاقات القوة والسيطرة، وكيف أنها أسهمت في تشكيل صور نمطية عن العرب بوصفهم متخلّفين، عاطفيين، ولا عقلانيين، مقابل الذات الغربية المتقدمة والعقلانية.

لكن من المهم الإشارة إلى أنه، ومع مرور الوقت، بدأت تظهر اتجاهات أكثر تحررًا داخل الاستعراب الغربي، خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين، مع صعود النقد الذاتي داخل الدوائر الأكاديمية الغربية، وتزايد التواصل مع المثقفين العرب، فقد أصبح بعض المستعربين يركزون على دراسة الأدب والفكر العربيين من منطلقات ثقافية وإنسانية، محاولين الابتعاد عن التوظيف السياسي والمعرفي المسبق.

يمكن القول إن الاستعراب في فرنسا وبريطانيا تميّز بخصوصيته، كونه نشأ في حضن الاستشراق الكولونيالي، وتطوّر داخل مؤسسات كان لها دور مزدوج: معرفي وإداري، وقد أسهم هذا السياق في إنتاج معرفة غزيرة حول العالم العربي، لكنها كانت مشروطة – في كثير من الحالات – بمنظور استعلائي وإيديولوجي، ومع ذلك، فإن هذا الاستعراب شهد تحولات لاحقة، جعلته أكثر انفتاحًا على الحوار النقدي، وأكثر اقترابًا من فهم الثقافة العربية في تعقيدها وتنوعها، بعيدًا عن النظرة النمطية والتبسيطية التي سادت في الحقبة الكولونيالية.

4. تباين الطابع السياسي للاستعراب:

يمثّل الاستعراب، بوصفه فرعًا من فروع المعرفة الاستشراقية، حالة متباينة من حيث ارتباطه بالسياقات السياسية للدول التي أنتجته، فليست جميع أشكال الاستعراب متشابهة في دوافعها أو في أنماط توظيفها؛ بل إن الموقع الجغرافي والسياسي للدولة المنتجة غالبًا ما ينعكس بوضوح على الطابع العام لهذا الاستعراب، وعلى مدى حياده أو انخراطه في الأجندات السياسية.

في أوروبا الغربية، وخصوصًا في فرنسا وبريطانيا، ارتبط الاستعراب في مراحل طويلة ارتباطًا وثيقًا بالمشاريع الإمبريالية، فقد كان المستعرب – في كثير من الحالات – جزءًا من الجهاز المعرفي الذي يخدم الإدارة الاستعمارية، ويوفر لها أدوات لفهم المجتمعات العربية بهدف ضبطها وتطويعها، وهكذا، لم يكن إنتاج المعرفة عن "العرب" و"الإسلام" منفصلًا عن منطق السلطة والسيطرة، بل جاء مشروطًا برؤية أوروبية متمركزة حول ذاتها، تتعامل مع الشرق كمساحة للغزو الرمزي والمادي في آنٍ معًا.

أما في أوروبا الشرقية، ولا سيما في روسيا والدول السلافية، فقد كان للاستعراب طابع مختلف نسبيًا. فقد نشأ بعيدًا عن الهيمنة الاستعمارية المباشرة، مما أتاح له – على الأقل في مراحله الأولى – أن

يركز على الجوانب اللغوية والأدبية والفكرية للثقافة العربية، دون أن يكون خاضعًا لنفس الضغوط السياسية التي عرفها الاستعراب الغربي، وبالرغم من أن الاستعراب السوفييتي لاحقًا لم يكن بمنأى عن التوظيف الأيديولوجي، خصوصًا خلال فترة الحرب الباردة، إلا أن طابعه ظلّ في كثير من الأحيان أكاديميًا ومعرفيًا أكثر من كونه استعماريًا.

وفي تجارب أخرى مثل أميركا اللاتينية، التي لا تحمل تاريخًا استعماريًا مباشرًا في العالم العربي، اتخذ الاستعراب – حين وُجد – طابعًا أكثر ثقافيّة وإنسانيّة، وجاء مدفوعًا غالبًا بتضامن سياسي أو وجداني مع قضايا العرب، ولا سيما القضية الفلسطينية، أو بتقارب حضاري وروحي، أكثر من كونه أداة سلطة أو هيمنة.

ومع ذلك، لا يعني الحديث عن "حياد نسبي" غياب التحيزات تمامًا؛ إذ تظل المنظومات المعرفية خاضعة لشروطها الثقافية والإيديولوجية، وقد تتسلّل التصورات المسبقة والصور النمطية إلى خطاب المستعرب، حتى في غياب النية السياسية المباشرة، فالاستعراب، بوصفه ممارسة معرفية، ليس بمنأى عن التأطير الثقافي والحضاري الذي ينتمي إليه الباحث أو المؤسسة التي تحتضنه.

إن تباين الطابع السياسي للاستعراب يُظهر أنه ليس ظاهرة موحّدة، بل هو مرآة لانعكاسات الجغرافيا والتاريخ والسياسة، ففي حين يظهر أكثر توظيفًا وخدمة للمصالح الإمبريالية في الغرب الأوروبي، فإنه يميل إلى قدر من التجرد الأكاديمي في السياقات غير الاستعمارية، وإن بقي خاضعًا – بدرجات متفاوتة – للبُنى الأيديولوجية والثقافية التي تشكل خلفيته، ومن هنا، فإن تحليل الاستعراب يتطلّب دائمًا فهمًا عميقًا لسياقه، ومساءلة نقدية دائمة لموقعه بين المعرفة والسلطة.

ثالثًا: الخصوصيات المنهجية

رغم أن الاستعراب يُعدّ في الغالب فرعًا من فروع الاستشراق، إلا أنه يتميّز عن الأخير بعدد من الخصوصيات المنهجية والمعرفية التي تمنحه طابعًا مغايرًا في الأهداف والمقاربات، فقد تطور الاستعراب – لاسيما في بعض السياقات الجغرافية – ليكوّن خطابًا بحثيًا أكثر تركيزًا وتخصصًا في قضايا العالم العربي تحديدًا، مبتعدًا بدرجات متفاوتة عن الإطار الاستشراقي العام الذي غالبًا ما هيمنت عليه النزعة الإمبريالية أو الفوقية الثقافية.

1. التركيز الجغرافي واللغوي المحدّد: أبرز ما يميّز الاستعراب عن الاستشراق هو التركيز الجغرافي واللغوي الضيق: إذ ينصبّ اهتمامه على العالم العربي وحده، بلغته وثقافته وتاريخه، دون التوسّع إلى مناطق غير عربية مثل الهند، الصين، أو إيران، والتي طالما شكلت موضوعًا للاستشراق بمفهومه الأوسع، هذا التحديد

الجغرافي منح الاستعراب مزيدًا من العمق في معالجة القضايا العربية، والقدرة على بناء تصورات دقيقة ومتخصصة في الشأن العربي، خصوصًا فيما يتعلق باللسانيات، الأدب، والأنثروبولوجيا الثقافية.

2. الأولوية للبعد الثقافي واللغوي: بينما ركّز الاستشراق الكلاسيكي – لا سيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر – على الإسلام كدين، وعلى النصوص الدينية بوصفها مدخلًا لفهم الشرق، فإن الاستعراب اتجه – في كثير من تجلياته – إلى إبراز البعد اللغوي والثقافي في دراسة العالم العربي، فقد أولى اهتمامًا خاصًا بـ اللغة العربية الكلاسيكية والمعاصرة، وكذلك بالأدب، الشعر، الفولكلور، الفنون، وأنماط العيش، باعتبارها مفاتيح لفهم الإنسان العربي وثقافته لا مجرد خلفية دينية.

3. التفاعل المباشر مع الفضاء العربي: من خصوصيات المنهجية الاستعرابية أيضًا وجود تفاعل مباشر ومتواصل مع المجتمعات العربية، سواء عبر الإقامة الطويلة في البلاد العربية، أو من خلال التعاون مع كتّاب ومفكرين ومؤسسات ثقافية عربية، وقد أتاح هذا التفاعل قدرًا من التبادلية المعرفية، وخلق نوعًا من الحوار الثقافي والفكري، يندر وجوده في نماذج الاستشراق التقليدي التي غالبًا ما بقيت مغلقة على ذاتها الغربية، في هذا السياق، أسهم عدد من المستعربين في ترجمة الأدب العربي الحديث، والمشاركة في مؤتمرات ومشاريع مشتركة مع مثقفين عرب، مما جعل حضورهم في الفضاء الثقافي العربي ملحوظًا وإيجابيًا أحيانًا.

4. الحياد النسبي في بعض السياقات: لا يمكن القول إن الاستعراب كان دومًا محايدًا أو خاليًا من الخلفيات الإيديولوجية، لكنه – مقارنة بالاستشراق – عرف في بعض مدارسه نوعًا من الحياد النسبي، خاصة في تجارب مثل المدرسة الروسية أو الإسبانية، حيث لم يكن هناك ارتباط عضوي مباشر بمشروع استعماري في العالم العربي، وقد ساعد ذلك على توجيه الجهد العلمي نحو تحقيق النصوص، ودراسة الشعر العربي، وتحليل البنى الثقافية من منطلق معرفي صرف، دون توظيفها بالضرورة في أغراض سياسية أو استعمارية.

إن خصوصيات المنهجية في الاستعراب تُبرز لنا أنه ليس مجرّد امتداد للاستشراق، بل هو مسار معرفي له استقلاله النسبي، وتميّز في مقاربته للقضايا العربية، فهو أكثر تخصّصًا جغرافيًا ولغويًا، وأقلّ انخراطًا في الرؤية الكولونيالية الشاملة التي طغت على الاستشراق، ومع ذلك، يظل من الضروري تفكيك الخطابات الاستعرابية نقديًا، وعدم التسليم ببراءتها التامة من التحيّزات الثقافية أو الأطر المفاهيمية الغربية التي قد تتسلّل إليها بطرق خفية.

رابعًا: الفروقات بين الاستعراب والاستشراق

البند	الاستعراب	الاستشراق
النطاق الجغرافي	يركّز على العالم العربي حصريًا من حيث اللغة والثقافة والتاريخ.	يشمل الشرق بأكمله: العالم العربي، الفارسي، الهندي، الصيني، وغيرها من الثقافات الشرقية.
الموضوعات	يركز على اللغة العربية، الأدب، الثقافة، والتاريخ العربي.	يهتم بـ الدين (الإسلام)، الفلسفة الشرقية، التاريخ العام، والاستراتيجيات.
الدوافع	في الغالب أكاديمية وثقافية، وخاصة في السياقات غير الاستعمارية.	غالبًا ما تكون استعمارية، دينية، أو أيديولوجية في المدارس الكلاسيكية الغربية.
الحياد	يتميز في بعض مدارسه (مثل الروسية والإسبانية) بـ حياد نسبي.	يغلب عليه الانحياز والتأطير الثقافي، خاصة في فترات الهيمنة الاستعمارية.
السياق السياسي	أقل ارتباطًا بالمشاريع الاستعمارية، خصوصًا في السياقات غير الغربية.	مرتبط بشكل وثيق بالمشروع الاستعماري الغربي، وتوظيف المعرفة في خدمة السلطة.

هذا الجدول لا يلغي وجود استثناءات وتداخلات بين المجالين، ولكنه يُبرز الاتجاهات العامة والسمات الغالبة على كل من الاستعراب والاستشراق، خاصة من حيث الدوافع، والسياق السياسي، والنطاق المعرفي، كما أن التطورات الحديثة في الدراسات الثقافية والنقد ما بعد الكولونيالي قد أعادت مساءلة الكثير من هذه الفروقات، لكنّها تظل قائمة كمحددات تحليلية مفيدة.

خامسًا: رموز بارزة في الاستعراب

ساهم عدد من المستعربين، خاصة من أوروبا الشرقية وإسبانيا، في تقديم معرفة أكثر موضوعية وعمقًا عن الثقافة العربية، بعيدًا عن الخطاب الاستشراقي الكلاسيكي الذي اتسم بالتحيز أو التوظيف الأيديولوجي، وقد تميز هؤلاء الباحثون باهتمامهم باللغة والأدب والتاريخ الثقافي، وبمحاولاتهم لبناء جسور تواصل معرفي حقيقي بين الشرق والغرب، ومن أبرز هذه الرموز:

1. إغناسيو مانويل ألتابي– (Ignacio Manuel Altabe) : باحث ومترجم إسباني اهتم بشكل خاص بـ الأدب الأندلسي، وتحديدًا الإنتاج الثقافي والفكري في الأندلس الإسلامية، ركّز على اللغة العربية بوصفها مكونًا أساسيًا في الهوية الثقافية الإسبانية، وساهم في إبراز التراث الأندلسي العربي باعتباره جزءًا من التاريخ المشترك بين العرب والإسبان، تميزت أعماله بنبرة ثقافية منفتحة ودقيقة بعيدًا عن النزعة الاستشراقية الكلاسيكية.

2. ميغيل أسين بلاثيوس– (Miguel Asín Palacios) : اسباني متخصص في الفلسفة الإسلامية، وخصوصًا في فكر ابن رشد وابن عربي، اشتهر بأبحاثه حول تأثير الفكر الإسلامي على الفكر المسيحي الأوروبي، لا سيما في العصور الوسطى، وقد أحدث جدلًا علميًا واسعًا بطرحه فرضيات عن تأثير "الإسراء والمعراج" في تشكيل الكوميديا الإلهية لـ دانتي، يمثل نموذجًا لمستعرب يُوظف أدواته المعرفية في التقريب بين الثقافات لا في تكريس التمايزات.

3. إغناطيوس كراتشكوفسكي– (Ignaz Kratchkovsky) : يُعدّ من أبرز المستعربين الروس في القرن العشرين، ترك إرثًا علميًا كبيرًا في مجال الأدب العربي الكلاسيكي، ومن أشهر مؤلفاته كتابه المرجعي "من تاريخ الأدب العربي"، الذي لا يزال مرجعًا أساسيًا في الدراسات العربية، ترجم العديد من النصوص التراثية إلى الروسية، وسعى إلى تقديم صورة متوازنة عن الثقافة العربية، مبنية على تحقيق علمي دقيق ومقاربة لغوية وأدبية عميقة.

4. إيليا بن عامي– (Ilya Ben Ami) : باحث روسي مهتم بـ العلاقات الثقافية بين العالم العربي والدول السلافية، ركّز في أعماله على الجوانب المشتركة في التجربة الحضارية والرمزية بين العرب والسلاف، وسعى إلى تحليل التداخلات والتقاطعات الثقافية بعيدًا عن الصور النمطية، كما شارك في عدد من المشاريع التي هدفت إلى تطوير تعليم اللغة العربية في المؤسسات الروسية.

تتميّز أعمال هؤلاء المستعربين بكونها جزءًا من تيار علمي وثقافي مستقل نسبيًا عن المشروع الاستعماري، وتُظهر اهتمامًا صادقًا بفهم الثقافة العربية من الداخل، من خلال اللغة والنصوص والأدب، لا من خلال التصنيفات الأيديولوجية الجاهزة، ولذا، فإنهم يمثلون نماذج يُحتذى بها في الحوار الحضاري، والبحث الأكاديمي الرصين الذي يسعى إلى التبادل المعرفي لا الهيمنة الرمزية.

سادسًا: دور الاستعراب في العصر الحديث

مع التحولات التي شهدها العالم في العقود الأخيرة، وخصوصًا في ظل تطور العلاقات الدولية، والعولمة، وتزايد الاهتمام بالحوار بين الحضارات، أصبح للاستعراب دور جديد ومتعدد الأبعاد في إعادة

تشكيل العلاقة المعرفية والثقافية بين العالم العربي والغرب، فقد تجاوز هذا الحقل المعرفي – في بعض تجلياته – الوظائف التقليدية التي ارتبطت بدراسة اللغة والتاريخ، ليصبح أداة فاعلة في بناء الجسور الثقافية، ومجالًا للمساءلة النقدية للأنماط الفكرية السابقة.

1. تعزيز الحوار الثقافي بين العرب وغيرهم: أصبح العديد من المستعربين اليوم فاعلين في فضاءات التقريب الثقافي والتواصل الحضاري، من خلال أبحاثهم، وندواتهم، ومشاركتهم في المؤتمرات الدولية، يسعى هؤلاء إلى تقديم صورة أكثر توازنًا وعمقًا عن الثقافة العربية، بعيدًا عن التمثيلات المشوهة التي سادت في القراءات الاستشراقية الكلاسيكية، كما ينخرط بعضهم في مشروعات مشتركة مع باحثين عرب، ما يفتح الباب أمام حوار معرفي متكافئ.

2. تصحيح الصور النمطية وإعادة قراءة التراث: واحدة من المهام البارزة التي يضطلع بها الاستعراب المعاصر هي تفكيك الصور النمطية التي ترسخت في القرنين التاسع عشر والعشرين ضمن الخطاب الاستشراقي، فقد بات العديد من المستعربين المعاصرين يدركون أثر الأيديولوجيا والهيمنة في إنتاج المعرفة عن "الشرق"، ويسعون إلى إعادة قراءة التراث العربي بمنهجيات أكثر نقدًا واحترامًا لتعدد الأصوات داخل هذا التراث، بعيدًا عن التعميمات أو الإسقاطات الغربية.

3. المساهمة في تعليم اللغة العربية: يلعب المستعربون اليوم دورًا مهمًا في تعليم اللغة العربية في الجامعات والمؤسسات الأكاديمية الغربية، من خلال تطوير مناهج تعليمية تراعي خصوصية اللغة والسياق الثقافي، والمساهمة في تأهيل أجيال من الطلبة لفهم العالم العربي بعيدًا عن الصور النمطية، وقد تطوّرت أقسام اللغة العربية في العديد من الجامعات لتصبح فضاءات بحثية نشطة تضم مستعربين وباحثين عربًا على حد سواء.

4. إثراء حركة الترجمة والتبادل المعرفي: يُسهم الاستعراب المعاصر بشكل فاعل في ترجمة الأدب والفكر العربيين إلى لغات أجنبية، والعكس كذلك، ما يدعم التبادل المعرفي والثقافي بين الحضارات، وتبرز هنا ترجمات الرواية العربية، والشعر، والنصوص الفلسفية، كمجالات يتم فيها نقل الثقافة العربية إلى الآخر بشكل أكثر إنصافًا ودقة.

5. المشاركة في دراسات ما بعد الاستشراق: في سياق النقد الأكاديمي للاستشراق، وخاصة بعد إسهامات مفكرين مثل إدوارد سعيد، برز تيار من المستعربين الذين باتوا يشاركون في ما يُعرف بـ "دراسات ما بعد الاستشراق"، وهو مجال يهدف إلى نقد الذات الغربية، وإعادة النظر في العلاقة المعرفية بالشرق، هؤلاء

المستعربون يتبنون مقاربات جديدة تحاول احترام الخصوصيات المحلية، والهويات الثقافية المتعددة داخل المجتمعات العربية، وتجاوز منطق المركزية الغربية الذي طبع الخطاب الاستشراقي الكلاسيكي.

إن دور الاستعراب في العصر الحديث لم يعد مقتصرًا على الجانب الأكاديمي البحت، بل أصبح جزءًا من عملية أوسع لإعادة تشكيل الوعي المتبادل بين العرب والغرب، ففي عالم متعدد ومترابط، يكتسب هذا الحقل أهميته من قدرته على تجاوز التحيزات القديمة، والمساهمة في بناء فهم أكثر تعقيدًا وإنصافًا للعالم العربي، عبر أدوات البحث، والحوار، والتعليم، والترجمة، والنقد الثقافي.

الخاتمة:

يمثّل الاستعراب حقلًا معرفيًا متفرّعًا عن الاستشراق، لكنه يتميّز عنه في دوافعه، ومنهجيته، وسياقه الجغرافي والسياسي، فعلى الرغم من تقاطع الموضوعات التي يعالجها المجالان – كدراسة اللغة، الأدب، التاريخ، والدين – إلا أن الاستعراب تطوّر في بعض البيئات الأكاديمية بعيدًا عن منطق السيطرة والهيمنة الذي ميّز الاستشراق الكلاسيكي، لا سيما في السياقات التي لم تنخرط في مشاريع استعمارية مباشرة تجاه العالم العربي، مثل روسيا وإسبانيا وأميركا اللاتينية.

وقد ساهم المستعربون، في مراحل متعددة، في بناء جسور معرفية وثقافية بين العرب وغيرهم، وساعدوا في نقل صورة أكثر إنصافًا وتنوعًا عن الثقافة العربية، من خلال الترجمة، والتعليم، والتفاعل الأكاديمي، كما انخرط بعضهم في مراجعات نقدية للاستشراق نفسه، من داخل المنظومة الغربية، بما يعكس تطورًا في الوعي الذاتي الأوروبي بالعلاقة مع "الآخر" العربي.

ومع ذلك، يبقى الاستعراب – كغيره من الحقول المعرفية – غير معزول عن الأطر الأيديولوجية التي تُشكّل الوعي الجمعي والسياسات الثقافية في المجتمعات المنتجة له، فهو ليس محصنًا من التحيزات المسبقة، أو من إسقاط التصورات الغربية على الواقع العربي، سواء على مستوى المنهج أو التحليل أو التمثيل، ولهذا فإن الحاجة إلى نقد الاستعراب من الداخل والخارج، ومساءلة منطلقاته وخطابه، تظلّ ضرورية لضمان تطويره في اتجاه أكثر احترامًا للخصوصيات المحلية، وأكثر انفتاحًا على تعددية الهويات والرؤى في العالم العربي.

إن مستقبل الاستعراب يظل واعدًا بقدر ما ينفتح على التفاعل المتكافئ، والاحترام المتبادل، والمراجعة النقدية المستمرة، بعيدًا عن النزعة المركزية أو الاستشراقية الجديدة، ليكون رافدًا حقيقيًا في بناء تفاهم إنساني قائم على المعرفة والتنوع لا على التصنيف والهيمنة.